صوت في البرية.... ودروب وعرة في الحياة

هيلاريون كابوتشي مطران القدس في المنفى... أتم رحلته إلى السماء

| د. اسكندر لوقا

أن يأخذ أحد على عاتقه مهمة التعريف بعالم صرح من صروح النضال من أجل الحياة بكرامة في زماننا الحالي، خطوة فيها الكثير من المجازفة، المعني بهذا الصرح هو سيادة المطران هيلاريون كبوتشي، الذي اختار لحضوره بيننا، في سنة ٢٠٠٧، دربا في الحياة هو الأشد وعورة بين الدروب، ولكن الأكثر رسوخاً في تاريخ أمتنا العربية.

ولأن مكانة المطران بين رعيته، كما جاء في توصيفه لها مجيباً عن سؤال أحد محاوريه في الخامس عشر من شهر كانون الأول عام ٢٠٠٠، بمنزلة الراعي فإنه من هذا المنطلق لم يبق واقفاً عند عتبة المتفرجين على ما يدور في ساحة المواجهة بين الرعيّة وأعدائها، كما الوقفة المترددة بين الخراف والذئاب في ساعة الخطر، فكانت نقلته المشهود لها من موقعه كراع في أبرشيته في مدينة أم الكنائس، إلى موقع المدافع عن هويتها التي استلبت في عدوان العام ١٩٦٧، بغية طمس معالمها إلى أمد غير محدود.

هذه النقلة الوطنية أدت إلى الحكم عليه بالسجن اثنتي عشرة سنة، كما نعلم، قضى منها أربع سنوات إلى أن أثمرت جهود قداسة البابا بولس السادس، فخرج من السجن ليصير مطرانا على القدس في منفاه مدينة روما.

سنة زار سيادته سورية عدة مرات، عبر عن هواجسه كإنسان منفي عن أرض الوطن، وفي هذا السياق أذكر قوله: أنا أعيش في المنفى، والله يعلم ما المنفى ومن يعش في المنفى يعش الذكريات، وأنا أعيش في الذكريات، أنا دائماً في سورية ودائماً في القدس. والذكريات تولد الحنين وتولد العذاب، وابتعادي من القدس هو موتي المعنوي، أنا في هذا المنفى يومياً أموت أكثر من مرّة، أنا تعيس، كل طموحي في هذا العمر أن أرجع إلى وطني وأعيش في سورية بين شعبي وأرجع مطراناً للقدس.

ولأن ما أخذ بالقوة لا يستعاد إلا بالقوة، كما في أدبيات النضال منذ نكسة الخامس من حزيران ١٩٦٧، رأى سيادة المطران كبوتشي، في هذا السياق، أن القوة ليس السلاح دائماً مصدرها، بل ثمة مرتكزات أخرى، وهي الأقوى كما نفهم من قوله: بل القوة هي وحدة الصف والتضامن والاتحاد.

وأعطى مثالاً عن يقينه بهذه المعادلة، مشيراً إلى زمن طفولته في مدينة حلب قال: أنا فخور بكوني سورياً، لأن سورية هي التي علمتني كل يوم ونحن أطفال، قبل أن ندخل إلى الصف «بلاد العرب أوطاني»، أنا سوري، لكنني ابن القضية الفلسطينية.

استناداً إلى رؤيته هذه أسهم سيادته في تسليح عملية لنسف مقر الكنيست الإسرائيلي خلال انعقاده في سنة ١٩٧٤، بيد أن فشل العملية كشف عن دوره فيها وعلى ضوئها حكم عليه.

ولعلنا لا نخطئ بإشارتنا، في هذا السياق، إلى ما تعنيه حالة السبات التي هي عليه في الوقت الراهن أمتنا العربية، تجاه الخطر المحيط بها من جميع أطرافها، بينما أعداء العرب، يتربصون بمسيحيي ومسلمي الشرق الأوسط تحديداً، لجرّهم إلى ساحة الاستسلام للأمر الواقع، وهم وقوف في المكان لا يملون من ترديد عبارات المحبة والمؤازرة والتعاطف، والنتيجة، كما نراها في معظم الأوقات جعجعة في جرن ولا طحين.

هذا الوقع جسد سيادة المطران كبوتشي معناه بقوله رداً على سؤال: إن المحبة حين لا تترجم على أرض الواقع تبقى مجرّد عاطفة، تقارب الكذب والنفاق والدجل.

ويروي سيادته، في هذه المناسبة، أن السيد المسيح سأله مار بطرس ذات مرة: هل تحبّني؟ قال له: نعم، فسأله مرة ثانية، فأجابه بنعم، وسأله مرة ثالثة فقال له السيد المسيح: لماذا تسألني؟

ونحن بدورنا، إذا ما سألنا أحد عن سر محبتنا للمطران كبوتشي، نحيله إلى ما رواه عن حكاية مار بطرس والسيد المسيح.

في كتابنا المقدّس درسنا أن البيت الذي ينقسم على نفسه يخرب، ومن هنا دعوته إلى وحدة الصف والتضامن والاتحاد تبقى في حاجة إلى تفعيل وليس إلى مجرد كلمات تقال في مناسبة تقتضي من قائلها مسايرة المستمعين إليه، وثمة اعتبارات عديدة كما يعلم الجميع، تفرض على القائلين بمعادلات الوحدة والتضامن والاتحاد، أن يعلنوا ذلك أحياناً، ولكنها تبقى في مكانها بلا حراك، وتنطفئ جذوتها، مهما كانت ساخنة، مع انقضاء وقت المناسبة التي اقتضت مقاربتها، فتضيع بالتالي، ولا أقول تخفت معالم الالتزام بالقضية المطروحة أمام القارئ.

هذا الالتزام، يضعه سيادة المطران كبوتشي أولوية في الرهان على مستقبل المواجهة مع أعداء العرب، يقول إن القدس هي بمنزلة الروح للجسد، هي كذلك بالنسبة للأرض الفلسطينية، ومنددا بأطماع الإسرائيليين وادعائهم بأن هذه الأرض لهم ومن أملاكهم يروي ما شاهده شخصياً في سنة ١٩٧٨ فوق باب الكنيست، قال: أنا بأم عيني رأيت فوق باب الكنيست في القدس عبارة «من الفرات إلى النيل حدودك يا إسرائيل» أنا في سنة ١٩٧٨ رأيتها هناك.

من هنا دعوته للتشبث بالأرض، والسعي لاسترداد قدسها، محذراً من نتائج هجرة شبانها وشاباتها بحثاً عن سلام هنا أو هناك، وفي يقيننا كما أقدّر، أن فراغاً إذا ما حدث في مكان ما نتيجة هجرة أصحابه، لابد سوف يملؤه الغرباء عنها، ويروي التاريخ أمثلة كثيرة عن هذه الظاهرة- الكارثة التي صنعها الغزو الصهيوني لأرض فلسطين في العام ١٩٤٨ وما بعد، وهي مستمرة حتى اليوم، وذلك وصولاً إلى خلق دويلات صغيرة، ضعيفة، متناحرة بعضها مع بعض، ويضرب سيادته مثالاً ما كان يحدث في ثمانينيات القرن الماضي، وينسحب على أيامنا الحاضرة. قال: إن ما يحدث في لبنان من سوء الطالع مخطط له وليس مصادفة. إن ما يحدث ليس من أجل خراب لبنان وتجزئة لبنان فحسب، وإنما انطلاقاً من لبنان بهدف بلقنة المنطقة برمتها. إن أعداء المنطقة يحاولون خلق دويلات طائفية لكي لا تكون إسرائيل الدولة الوحيدة في هذه المنطقة ذات الطابع الديني.

وأنا هنا قد لا أملك حق القول إن غياب الراعي الصالح عرض خرافه لخطر القهر والتشرد، ولكن ماذا عن هذا الغياب في رعاية من تبقى من أفراد القطيع؟ إن سيادة المطران حتى ما قبل سنوات قليلة يحذر من تفاقم خطر الهجرة من الأرض، حيث الشرعية لم يعد لها أثر في مستقبلها. والشرعية الدولية، كما أشار إليها سيادة المطران كبوتشي، ذات يوم تقول إنه لا لاحتلال أرض الغير بالقوة. ومشيراً إلى حق العرب بأرضهم التي سرقت منهم، ينوه بالقرارين ٢٤٢ و٣٣٨.

وعند هذه الفاصلة في سياق كلامه عن الحق والقوة، يضيف قوله: إن المساومة على الحق جبن وتخاذل واستسلام.

ويرى في هذا السياق أيضاً أن ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان. يقول: الكرامة هي الحياة، وعنوان الكرامة هو وطن. ويضيف قوله: من هنا وطني فلسطين المناضلة، وطني سورية التي علمتني الصمود ورفض أي مساومة على الكرامة مقابل رغيف الخبز.

ولا أظن أحداً منا يرى غير هذا الرأي. إن عودة إلى الماضي القريب نسبياً، توضح له ما معنى الاكتفاء بالخبز وحده، منذ تاريخ إبرام اتفاقية كامب ديفيد، واتفاقية أوسلو، مروراً باتفاقية الإذعان، واتفاقية وادي عربة، وكلها اتفاقيات برهنت على أن إسرائيل نجحت في اختبار قدرتها على ترجمة قانون «الغاية التي تبرر الوسيلة». وها نحن نقطف ثمار المساومة على حقنا في أرضنا المقدسة. ولا يظن أحد أنني أبالغ في قولي إن غياب السلام في وقتنا الراهن يضعنا أمام معادلة لا بديل لها: إما سلام وإما حرب.

> أنا دوماً في سورية... وتعلمنا أن البيت الذي ينقسم على نفسه يخرب فلا بد من الوحدة

وبالإشارة إلى امتناع إسرائيل عن مد يدها لصنع السلام العادل والشامل مع العرب، لسيادة المطران نظرته التالية. قال: السلام يعني الجغرافيا. وهذا ما تردده سورية في كل مناسبة.

ولهذا الاعتبار كثيراً ما أشاد سيادة المطران كبوتشي بمواقف سورية الوطنية والقومية. على سبيل المثال قوله التالي: لأن سورية امتداد لفلسطين وفلسطين امتداد لسورية، والتربة نفسها، سألت عن حالة قلبي، وإذ بقلبي يجيبني أنه ما زال ينبض ويكبر، وهذا بفضل هذه الانتفاضة المشرفة التي نرفع بها رأسنا حالياً، وتقف سورية إلى جانبها بكل شرف وأمانة. البارحة، عندما نزلت من الطائرة، بلا شعور رأيتني أقبل الأرض السورية، أرض العرب كل العرب. وحين وضعت أذني على هذه الأرض فذلك لكي أسمع صدى القلب الذي زرعته في فلسطين عندما أجبرت على تركها. وهناك أيضاً، قبل أن أنفي ركعت بلا شعور وقبلت الأرض وكأنني دفنت قلبي هناك. وهكذا سورية دائماً في قلبي وأجيء إليها لأتمون فيها المؤونة الروحية، إن العالم العربي من دون سورية مثل طاولة على ثلاثة أرجل، ولكي تقف لابد من الرجل الرابعة.

في سياق هذه النقلات السريعة بين القول والفعل، بين الفكرة والفكرة، أستذكر إجابته عن سؤال لمراسل وكالة الـ«قدس بريس» في أيار من العام ٢٠٠٢ جاء فيها: إن تل أبيب تشن حرباً جهنمية على الشعب الفلسطيني الأعزل إلا من إيمانه بعدالة قضيته وحتمية انتصاره.

بهذه الرؤية الواضحة لديه حول تلازم الإيمان بعدالة القضية، أضفى سيادة المطران كبوتشي، عملياً، بركته على مسار المقاومة في التصدي للاحتلال الصهيوني، مشدداً، في الوقت ذاته على حتمية الانتصار، لتتحرر الأرض المغتصبة وتعود إلى أصحابها الشرعيين. وهو إلى اليوم لا يمكنه تصور نفسه بعيداً عن هذه الأرض. ويروي ما يلي: أنا في بيتي لديّ «كابيلا» أي مصلى صغير. ومن يعجبه هذا فليعجبه، ومن لا يعجبه لا يعجبه. وإلى جانب صورة سيدتنا مريم ثمة صورة لسيادة الرئيس حافظ الأسد، وذلك اعتزازاً بذكرى اليوم الذي استقبلني في قصره، في الحادي عشر من شهر كانون الثاني عام ١٩٨٨. ويومياً عندما أصلي أغمض عيني وأسكت قليلاً، ثم أطلب من الله أن يحفظ سورية ويحقق لأهلنا فيها ما تصبو إليه نفوسهم.

ولا أعتقد أنني سأنسى يوماً، تلك الابتسامة الدافئة التي قابل بها قائدنا الراحل الرئيس حافظ الأسد مشاعر المطران كبوتشي، معقباً عليها بالقول: من دون مجاملة، هنا في البلد كل الناس يقدرونك، حتى الأطفال ينظرون إليك كمواطن سوري، ويفتخرون بأن مواطناً من بلدهم، رجل دين، يمر بكل هذه الظروف الصعبة والمعقدة، ولم يحد عن الطريق أو يضيعه، بكل الصدق أقول لك إن كل الناس عندنا يتتبعون أخبارك ويعتزون بمواقفك.

ومع تفاقم تدفق يهود العالم، إلى فلسطين، وبينهم من لم يعرفها في حياته، على حساب من هجّروا عنها قسراً، في سنوات الاحتلال، يتساءل سيادة المطران كبوتشي بصوت عال: كيف يكون من حق هؤلاء المجيء إلى فلسطين، وأنا ابن فلسطين ليس لي الحق أن أعود إلى بلدي؟

تلك هي المعاناة التي يعيشها سيادة المطران كبوتشي منذ أن غادر فلسطين في الثامن من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٧٨، مودعاً أبرشيته التي تولى إدارة شؤونها منذ قدومه إلى القدس في سنة ١٩٦٥. وفي يقينه، وهو في منفاه، أن ضمير العالم لابد أن يستيقظ يوماً، وأن العالم العربي والإسلامي لابد أن يتخطى حالة الغرق في نومه، بأمل عودة كل المهجرين والمهاجرين إلى بيوتهم في أرضهم فلسطين، حيث ولد المخلص وصلب من أجلنا نحن البشر، وقام في اليوم الثالث وصعد إلى السماء.

وحين يصف سيادة المطران كبوتشي حالنا اليوم- نحن أصحاب القضية- يشبهه بحالة المغلوب على أمره كما في المثال الذي يروى: «رغيف خبز كامل لا تقسم. المقسوم لا تأكل. وكل حتى تشبع»!

ولا يخفي سيادته قناعته بأن المناضلين من أبناء أمتنا العربية سوف يواصلون نضالهم حتى يوم تحرير كل ذرة من تراب وطننا العربي المقدس ويضيف: يبقى أملنا بيقظة الضمير ذات يوم ليتبين الجميع الخط الأبيض من الخط الأسود، الخط الفاصل بين الخير الذي يكمن في قلوبنا والشر الذي يكمن في قلوب أعدائنا.

أذكر ذلك، حتى لا يبقى الصوت يتردد في البراري وليس ثمة من يسمع حتى لا يكون السؤال كما سأل الشاعر:

هو صيحة ملأ الفضاء دويّها

فسل العروبة هل لها آذان؟

بين الآلام والأنين هناك المرأة السورية التي عانت

فاديا محمود.. الفيلم إنساني نساؤه يتكلمن عن معاناتهنّ

| سوسن صيداوي

بين عتبات الحياة تختبئ الذكريات السوداء التي تتربص بنا وبحياتنا بطريقة أو بأخرى، محاولة جرتنا عنوة إلى المكان والزمان الذي استعبد إنسانيتنا وذلها وآذاها بصور تفوق البشاعة وبطريقة لا يمكن لعقل بشري أن يتصورها، إلا إذا كان عقلا مبرمجا على تطبيق كل صنوف وأشكال الإرهاب، وتتم تغذيته وشحذ طاقته بالقتل والإجرام والتعذيب، كي يصل في النهاية إلى نشوة متوحشة وحتى المخلوقات الحيوانية تعتذر بطبيعتها عند مثل تلك الممارسات والغرائز، التي ومنذ التاريخ الأول للبشرية كانت ومازالت كل الحضارات والحيوات المتتالية تسعى بكل جهد إلى تهذيب البشر وترقيتها بفكرها وغرائزها وبكل تكويناتها النفسية والمشاعرية، ولكن وللأسف الشديد وما هو مخيب للآمال في الوقت نفسه، التفكير فيه هو أمر مرعب ويقطع الأنفاس، وخاصة أن هذه الأدوات البشرية الإرهابية المنهجة أصبحت واقعاً وذاق من جنونها وفظاعتها ورعب حتى أخبارها المتناقلة، هذا إضافة لممارستها، أعداد لا يمكن إحصاؤها من الشعب السوري، فبين الأنين والوجع، وبين الذبح والاستمتاع بالسحل والضرب، وبين القتل وترجي الموت، هناك مسافات وأوقات رغم تباعدها في المكان وحتى الزمان، إلا أن الجامع لها هو الوجع والصراخ والعذاب الذي لا يمكن تصوره من جهة، والجغرافيا السورية من جهة ثانية، هذا قليل عما صوره الفيلم الوثائقي «وجع» الذي أُطلق في دار الأسد للثقافة والفنون في دمشق، ضمن نشاطات مبادرة «ورد» التي تقيمها الجمعية الخيرية للتنمية المستدامة، وتخلل الفعالية عدة فقرات منوعة منها غنائية قدمها أطفال «كورال ألوان» بقيادة المايسترو حسام الدين بريمو، وتم خلال الحفل عرض فيلم توثيقي عن نشاطات الجمعية في نشر مفهوم المواطنة الفعالة وورش التدريب بالإضافة إلى فيلم تعريفي بمبادرة «ورد» التي أطلقتها في ٨ من الشهر الأخير من العام المنصرم، والتي تهدف بطبيعتها إلى نشر التوعية المجتمعية بأهمية مناهضة العنف القائم على النوع الاجتماعي وإعادة تأهيل الأطفال المشردين والمتسولين مع تأكيد مسؤولية المجتمع في القضاء على هذه الظاهرة، ومن فقرات الفعالية كان كما ذكر أعلاه عرض الفيلم «وجع» الذي سلط الضوء على معاناة المرأة السورية خلال الحرب الإرهابية على سورية في السنين الست الماضية.

تعريف بالفيلم

تمّ عرض الفيلم الوثائقي «وجع» ضمن فعالية «ورد»، وهو من نتاج جهد زوجين تقاسما مهام العمل فيه، فالتأليف والإعداد كان من مهمة «فاديا محمود» وهذا الفيلم هو التجربة الأولى لها، أما الإخراج فكان مهمة زوجها «إدوارد ميا» الذي دعم زوجته وخاصة في إنتاج فكرة الفيلم الذي كان في بال الكاتبة منذ سنوات، والجدير بالذكر أن الفيلم شاهد النور وتمّ عرضه بجهد شخصي بين الزوجين ومن دون أي رعاية من وزارة الإعلام.

انبثاق من وجع

الألم أو الوجع هو حاضر في المشاعر الإنسانية، الذي هو لابد أن يكون ضرورة كي ترتقي النفس إلى الإنسانية، ولكن عندما يتعلق الأمر بالمرأة فهذا الألم يصبح أمراً له حساسيّة وخاصة أنها مع الطفل كائنان ضعيفان بتكوينهما وهما من يعانيان أكثر من الرجل وخاصة في زمن الحرب، هذا ما أشارت إليه فاديا محمود «في ظل هذا الإرهاب الذي يصدّر لنا من كل دول العالم، المرأة والطفل هما ضحيته، فالمرأة هي الأضعف ولأنها لا تحمل سلاحاً يتم الانتقام منها بصور مختلفة، وجاء فيلم «وجع» كي يوثّق شهادات حية لنساء سوريات تعرضن لصور الإرهاب البشعة في أماكن مختلفة في سورية وبعدة محافظات، كما يعرض الفيلم فترتين، الأولى قبل الأزمة ولغاية عام ٢٠١١، ونحكي خلالها عن حالتها القانونية والاجتماعية وكيف كانت حالها في القوانين مثل قانون الأحوال الشخصية وقانون العقوبات، وأشكال التمييز التي كانت تعانيها المرأة، ورغم ذلك كانت المرأة السورية تقارن نفسها بالمرأة الأوروبية أو الغربية، كما تتطلع للمواطنة الكاملة، أما الفترة الثانية التي يعرضها الفيلم فهي من عام ٢٠١١ حتى اليوم، حيث يصور حالة الحرب والأساليب الإرهابية التي مورست على المرأة وكيف غيّرت حياتها وجعلتها تعاني مبتعدة عن حقوقها الطبيعية الإنسانية بعد أن أصبحت حياتها في خطر بفقدانها لعائلتها أو منزلها أو للمعيل أو بتعرضها للاغتصاب أو قتل النفس».

> صور مما عانته المرأة السورية خلال الحرب، تنوعت بين العنف والاغتصاب وصولاً إلى القتل والتعذيب

صور من معاناة

عالج الفيلم صوراً مما عانته المرأة السورية خلال الحرب، تنوعت بين العنف والاغتصاب وصولاً إلى القتل والتعذيب وهناك الكثير قد أضافته بشرحها عنه مؤلفة ومعدة الفيلم «من خلال شهادات حية لنساء سوريات عرض الفيلم حالات تعرضت إلى الاغتصاب، وخاصة أنه في مجتمعنا لا يتم البوح عن قضايا كهذه والنساء التي يتم اغتصابهن لا يتكلّمن، ولكنني تمكنت من توثيق حالتين أو ثلاث، ومنها جمعت إحصائية من خلال المتحدثات اللواتي كنّا على علم بمئة امرأة على الأقل تعرضت للاغتصاب، وكم هذا الفعل صعب ومسيء وبسببه لا تستطيع المرأة متابعة حياتها، وحتى التواصل بأمور الحياة البسيطة، بالإضافة إلى التحطم النفسي وعدم القدرة على الاستمرار في الحياة».

صور أخرى

خلال خمسين دقيقة من الفيلم تمّ عرض صور متعددة، فمن حلب كانت المعاناة بفقد المنزل الذي لم تخرج منه يوما المرأة كي تضيع في زحام الحياة، فاديا محمود «عرضت المرأة الحلبية المتمسكة بالعادات والتقاليد، لأنها ربة منزل، لا تخرج من المنزل أبداً إلا للضرورات القليلة، وطبعا هذه المرأة بخسارتها منزلها هي غير جاهزة للخروج من المنزل، وليست مؤهلة، ومن الصور الأخرى التي سلطت عليها الضوء وكنت سافرت بها من الرقة بعد دخول داعش عليها، فيها كانت امرأة سورية مسيحية متزوجة ومن وقت طويل برجل مسلم، وبوجود داعش قالوا لها إنها تستوجب حكم القتل أو السبي، وتلك المرأة بصوتها المتهدج هي من تحدثت عن معاناتها، ولم ينته هنا الوجع بل ذهبنا برحلتنا المؤلمة إلى حمص التي عانت الكثير من الألم وعرضت قصة امرأة سورية كان استشهد ابنها بصاروخ وتعرضت هي للإصابة».

المرأة السورية.. صامدة

لم يعرض الفيلم صور الألم والأنين بل كان وراء ذلك البؤس الذي فُرض المرأة السورية خلفه صمود كبير نابع من كونها أم الحضارة وأهم عناصر الاستمرار ومن ثم البناء والإعمار في التربية والفكر والتنشئة، من بين الصور كانت صورة تؤكد هذا الكلام وتحدثت عنها الكاتبة قائلة «المرأة هي نصف المجتمع وهي أم الشهيد وأخته وابنته وزوجته، فما عانته لا يمكن أن يعد ولكنها ستخرج شامخة وصامدة من الأزمة، لأنها وهي في ظل الأزمة والرعب قررت مع زوجها أن تقتل نفسها كي لا يتم تعذيب أطفالها أو زوجها أو تتعرض هي نفسها لأشد وأقسى العذاب فقرروا الموت معا مختارين، وهذه الصورة كانت في عدرا العمالية، ومن هنا نعرف كم المرأة السورية قوية ولها رأي وهي في النهاية صاحبة قرار مثلها مثل الرجل، ولابد لي من القول إن فيلم «وجع» هو فيلم إنساني بالمرتبة الأولى ومشاعر الناس هي التي تتكلم، ونحن كإعلام أحيانا لا نكون على أرض الواقع، ولكن الفيلم حقيقي والقصص أشخاصها هم من يتكلمون».